

الأخبار

الفنان العراقي مسكون بالحرب وصراعات المنطقة

سروان باران: التعبيرية في زمن التكالب

فنون بصرية | نيكول يونس | الجمعة 13 نيسان 2018

فنان شاب في بيروت يهمس بصوت ملؤه المتعة المشاكسة: «أكوّن لوحاتي بطعم الرسم». هكذا، يسير عكس مزاج المحنة التشكيلي العراقي تقنياً، لكنه مشبّع باستنزاف الحروب المستمرة في بلاده منذ ما يقارب 30 عاماً، وبزمن يجتمع فيه الفن الفريسة. يأخذ الكلب كمفردة بصرية، يصيغ بها ومنها تأليفاته، ويُنشئ عبرها ببيان لوحته البصري والمفهومي ضمن «أنياب» في «غاليري أجيال».

من «كلاب الديموقراطية» إلى «الكلاب الآلهة»

في مثل هذه الأيام من شهر نيسان (أبريل) 2003، كان الاحتلال الأميركي للعراق يعلن «سقوط» بغداد. لكن مهلاً الأرض تسقط، بل يسقط عليها الغزاة، وتبقى... وتبقى معها ندوب الحروب. بعد 15 عاماً بالظبط، يقوم ابن بغداد سروان بوصف بصري لمبدأ «التكالب». ليس فقط تكالب الجيوش الأجنبية الغازية لأرضنا، بل تناهش أبناء البلد الواحد. وهنا يجوز على مختلف البلدان العربية.

من بيروت، يصرخ باران بصوت الضحايا، ضد «الاستكلاب» و«الاستشراس». يرسم كلاباً، لكن الضحية هو الكلب نفسه أكثر من ثلاثين لوحة بالإكريليك على القماش، بعضها أيضاً بالإكريليك والفحم على القماش وحتى على الورق. يحاكي الواقع المزمّن الناتج ليس فقط عن الحروب المستمرة في منطقتنا، بل الحروب الإنسانية الأعمق من حدود العسكرة. «القتل لتأكل. أما الإنسان فيقتل من أجل القتل، وهو ما نعيشه حالياً مع تجمع الكل على الفريسة» يقولها بران بمرارة بداية تكوّن الفكرة بعد الغزو الأميركي للعراق، حين أدخل جيش الاحتلال الكلاب الحربية بكثافة في عمله العدواني. «دائماً تُستخدم لتفتيش البيوت» يقول باران: «لكن الكلب في ثقافة العراقي هو الذي نربيه في بيوتنا وبحرسنا. أما هذه فدخل الكلب العسكري المتوحش. يدخل بيوتنا ويشم النساء ويشم البيت ويتصرف بطريقة عدوانية إرهابية».



من المعرض (أكريليك على كانفاس . 170 × 138 سنتم)

في البداية، رسم باران جنرالات الحرب وأبقى الكلاب. لكنه مع الوقت، بحثَ وتعمَّق في قصص الكلاب عبر تاريخ الحضارات والميثوا العالمية، حيث كان الكلب نقطة الربط بين الحياة والحياة الأخرى والشفاء. هو حارس المقابر وحارس الأرواح، سواء في حضارة بلاد النهرين، أو الحضارة المصرية، أو حتى عند المايا أو في الحضارة اليونانية القديمة. فهذا العنصر البطل في أحداث الأساطير، الذي ألَّي الحضارات، يعاود باران عجن طينته، ويكوِّنه بصرياً على اللوحة، بطلاً لها. مرة كضحية، ومرة كمفترس، وفي كل الاحوال رمزاً تأ وصراعاتها، أمس واليوم وغداً.

كمفردة بصرية

«نعم هذا المعرض قاسٍ إلى حد ما، لكنني مصرٌّ أن أرسم ما أشعر به. لا يهمني إطلاقاً أن أقدم لوحة تزيينية، بل أحاول أن أقدم فـ وفكرةً. والواقع أن مفردة الكلب البصرية التي رسمتها تجعله متراًس اللوحة وبطلها. هو المفردة الرمزية التي أُعبر بها عن الحياة! ا بالكلب كأنه عجيبة، أوزَّعه بحركة جسمه، وأوزعه داخل اللوحة. صنعت تشكيلاً من أجساد الكلاب. هذه كانت فكريتي تقنياً. قدم تختلف عن التجربة العراقية التي لا تعتمد على الرسم، بل على السطح والبعد الواحد حيناً أو على الفن المفهومي ومعالجات الموا، أخرى. لذا هذه المرة أحببت أن أقدم عملاً فنياً وأكوِّن لوحاتي بطعم الرسم!» بحسب باران.

هنا أكثر من ثلاثين لوحة، بمختلف القياسات فيها كلاب إما باتجاهين مختلفين، أو يتصارعان ورأس أحدهما على كتف الآخر، أو الإنسان بالكلب. يطغى على هذه الأعمال لون الجلدة الإنسانية المائلة إلى الزهر أو حتى المدمجة مع البني المخفف بالأصفر أو الأحمر بالتشريح الجمالي لأبرز التعبيريين في العالم. لكن المفارقة أن «جلدة الرِّجُل» في معجم اللغة العربية المعاصرة تعني: قومه أو عشب فيقال: هو من أبناء جلدتنا/ هو من بني جلدتنا: من عشيرتنا، من أبناء وطننا. هنا يشرح لنا مدير الغاليري صالح بركات: «المعرض بالرموز والتأويلات. الكلب حيوان أليف، لكنه يمكنه أيضاً أن يكون شرساً. الموضوع يعكس الواقع الذي نعيشه الآن وهو في النهاية التكالب. الناس تنهش بعضها، لم يعد هناك محبة ولا إلفة ولا صبر، في حين يُفترض أننا نعيش في عالمٍ يصبر فيه الإنسان على أ- الإنسان. كنت أبحث دائماً عن إمكانيات التصالح والحلول الرضائية الحُبية، المربحة لكل الأطراف. لكن الواقع صادم. مثل بسيط؟ سيارتان أمامك على الطريق، فيبدأ السائقان فوراً بتعنيف بعضهما من دون رحمة بل باستشراس!

نعم الموضوع قاسٍ، لأننا نعيش في زمن قاسٍ جداً! فهل نريد من الفنان أن يصمت؟ أن يرسم الزهور فقط؟ أن لا يحكي عما يحصل يعبر بفنه عن الحقائق والوقائع؟

أسئلة حقيقية، تجيب عليها أعمال باران بحيث يمكنك استنباط كم هائل من الرموز التي تغذي فكرته، فتشعر بنبض هذه الكائنا النابحة في مدار اللوحة.

«المعرض قاسٍ، لكن أي عمل فني مرسوم بالفرشاة، يأخذ صفة شاعرية بعيداً عن القساوة» يقول باران، مضيفاً: «الرسم مجمو: متحسسات صدرها الدماغ إلى اليد والأصابع، ثم ينتقل النبض إلى الفرشاة واللون. لذا أي عمل يُرسم مهما كان قاسياً، يصبح ش اللوحة».

البنيان التشكيلي التعبيري على وقع الحروب

الكلب كمفردة بصرية أساسية في صياغة اللغة التشكيلية للمعرض، عبر تشريح جمالي متين، وعجيبة لونية ناضجة رخيمة. عواد الرائي لوهلة، بفرانسيس بايكون، أو بلوسيان فرويد وضربات تشريح العضل الواثقة المتنوعة الدرجات. لكن يمكنك أيضاً أن تستد خلطات سوتين، أو حتى أن تقرأ نهجاً «أينغون شيلياً» في تأليفات بعض اللوحات، ما يزيد متعتك البصرية وغرقك في تفاصيل الأء وموروثات تاريخ الفن التشكيلي التعبيري الفذ!

تشریح جمالی متین، وعجینة لونية ناضجة

«كفنان تشكيلي، أنا وليد الفن العالمي. وعبر دراستنا، تبقى تأثيرات الفن العالمي موجودة فينا، كما تأثيرات فن المنطقة. الفن العراقي من معلّمينا. إحالة العمل لهذه المنطقة من تاريخ الفن، لأنني أرسم اللحم، ما يحيلك تلقائياً إلى التعبير الحرب العالمية الثانية، حين كان الفنانون مثقلين بمأساة الحرب. وإذا كانت الحرب العالمية الثانية دامت 4 سنوات وند فالحرب التي خضناها طالت 29 عاماً! وقد تركت بنا آثاراً كبيرة. أنا مثقل بالحرب! رسمت خلالها 150 إلى 200 تخطيط الجنود. فقدنا الكثير من الأصدقاء. الحرب ما زالت مستمرة إلى هذا اليوم في العراق.»

أجيال حاضنة للصرخة

بعد انتقال باران من عمان إلى بيروت، أخذ مرسماً هنا، وبدأ صالح بركات يزور المرسم منذ ثلاث سنوات. من بين التجا مهتماً بالتجربة على فكرة الكلب. يقول باران: «على رغم أن الفكرة قاسية في المضمون، ويمكن أن لا تُباع الأعمال، لكن قال إنه مسؤول عن الاختيار. وأكد أهمية العرض أولاً، لا البيع، باعتبار العرض نشاطاً ثقافياً.»

ما يؤكد صالح بركات لـ «الأخبار»: «باران فنان جدي وموهوب أمضى آخر ثلاث سنوات في العمل على هذا الموضوع. ومضمون هذا المعرض تعبيراً حقيقياً عن الواقع والحالة الراهنة. وهنا يهمني أن أؤكد على مهمتي أن أتابع الفنان وأعرض كان جدياً. طبعاً، باران يأخذ أيضاً من الأسطورة الميزوبوتامية، وغيرها عن دور الكلب في سياق الحياة والحياة بعد المور والعديد من الرموز والدلائل التي هي بطبيعة الحال حجة حتى يرسم أعمالاً قوية كهذه. طبعاً، كل فنان يريد حجة لا وأحياناً يمكن أن تكون حجة بسيطة أو أكثر تعقيداً. ومن الواضح أنني أحب الفنانين الذين لديهم التزام بمواجهة مشـ مجتمعاتهم.»

* «أنياب» لسروان باران: حتى يوم غد. «غاليري أجيال». للاستعلام: 01/345213